



اثنوغرافيا المجتمع الجزائري من خلال مؤلفات "المؤرخ ارنست مرسية

"1905 - 1875"

Ethnography of Algerian society through the writings of
historian Ernest Mercier "1875-1905"

ط.د حسين كندري^{1*} ؛ عبد السلام عكاش²

¹ جامعة عباس لغرور خنشلة (الجزائر)

مخبر دراسات في التاريخ والثقافة والمجتمع جامعة باتنة 1

البريد الالكتروني المهني: kendri.housseyn@univ-khenchela.dz

² جامعة محمد الشريف مساعدي سوق اهراس (الجزائر)

البريدي الالكتروني المهني: a.akkache@univ-soukahras.dz

تاريخ النشر

2024/12/01

تاريخ القبول

2024/10/15

تاريخ الإيداع

2024/06/09

الملخص: تهدف هذه الدراسة لكشف نظرة المؤرخ الفرنسي إرنست مرسية الى المجتمع الجزائري من خلال الكتب والمقالات التي ألفها خلال الفترة 1875-1905 عن تاريخ الجزائر أو عن عادات ولغة سكان شمال افريقيا.

ولبلوغ هذا الهدف لجأنا الى استخدام المنهج التاريخي من أجل استقراء المعلومات التاريخية من مختلف المؤلفات التي كتبها هذا المؤرخ عن الجزائر، كما لجأنا الى منهج النقدي بكشف المغالطات التي وقع فيها المؤرخ في تدوينه، وهذا من خلال اعتماد آليات تقوم على جمع المعلومات من مختلف المصادر ذات الصلة بالدراسة ومقارنة ما جاء فيها بما أورده المؤلف في كتاباته.

لنتوصل في ختام هذه الدراسة الى حرص ارنست مرسية على تقزيم شأن المجتمع الجزائري واثبات عدم أهليتهم لتأسيس دولة خاصة بهم وضمان استمرار الهيمنة الاستعمارية الفرنسية عليهم.

الكلمات المفتاحية: اثنوغرافيا، ارنست مرسية، أمازيغ، تقاليد وعادات، المجتمع الجزائري.

* المؤلف المرسل

Abstract: This study aims to reveal the French historian Ernest Mercier's view of Algerian society through what he wrote about Algeria and its history during the period 1875-1905.

In order to achieve our goal, we used the appropriate historical method to extrapolate historical information from the historian's various writings about Algeria. We also resorted to the critical method by revealing the fallacies that the historian fell into in his writings, and this was done by adopting mechanisms based on collecting information from various sources related to the study and comparing what was included in them with what the author mentioned in his writings.

The conclusion of this study is that Ernest Mercier was keen to belittle Algerian society and prove its ineligibility to establish its own state and ensure the continuation of French colonial domination over it.

Keywords: *Ethnography, Ernest Mercier, Amazigh, Traditions and customs, Algerian society.*

مقدمة:

منذ بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر تركزت جهود الفرنسيين في تثبيت سيطرتهم على ممتلكات الشعب الجزائري وفهم مكوناته وتركيبته الاجتماعية وتعلم لغته ولهجاته من أجل استغلاله لخدمة مصالح المستوطنين، وهو الأمر الذي دفع بالكثير من قادة الاحتلال الفرنسي إلى تشجيع الباحثين والعلماء والعارفين باللغة العربية من موظفيها الإداريين لإنجاز دراسات تسهل مهمة الاحتلال بفهم طبيعة السكان وطريقة تفكيرهم.

ومن هذا المنطلق ظهرت العديد من الدراسات الفرنسية التي تهتم بتحليل مكونات المجتمع الجزائري وتركيبته القبلية، والعمل على التشكيك في أصولهم ونفي طبيعة الوحدة بين عناصر المجتمع وبث مزيد من الخلافات والفرقة بينهم، وذلك من خلال الدراسات التي تهتم بصفة خاصة بخصائص الشعوب اللغوية والثقافية والسلالية أي دراسة الصفات والخصائص المميزة لأجناس الإنسان من حيث الملامح الفيزيائية والخلقية السائدة بين البشر وكذلك العلاقات القائمة التي تربط بينهم.

وبحثنا هذا يسلط الضوء على ضباط الإدارة والمؤرخ ارنست، والذي اهتم بدراسة ماضي المجتمع الجزائري ومكوناته القبلية والعرقية خاصة منطقة الشرق الجزائري، لذا ارتأينا البحث عن نظرة هذا المؤرخ الى اثنوغرافيا المجتمع الجزائري من خلال دراسة مؤلفاته عن

هذا الجانب ببحث عنوانه " إثنوغرافيا المجتمع الجزائري من خلال مؤلفات المؤرخ ارنست مرسويه 1875 - 1905"

ولدراسة هذا البحث نطرح الإشكالية التالية:

إلى أي مدى التزم المؤرخ ارنست مرسويه بالموضوعية والحياد العلمي خلال تطرقه لواقع المجتمع الجزائري بالدراسة والتحليل؟

وبهدف الإجابة على هذه الإشكالية قسمنا دراستنا الى مقدمة تضمنت تعريفا للموضوع واشكاليته وأهمية الدراسة وأهدافها، كما قسمناها الى ثلاثة عناصر هي:

1 - التعريف بأرنست مرسويه ومؤلفاته عن اثنوغرافيا المجتمع الجزائري.

2 - اثنوغرافيا المجتمع الجزائري حسب ارنست مرسويه.

3 - نقد وتقييم آراء ارنست مرسويه.

كما تضمنت الدراسة خاتمة تضمنت مجموعة الاستنتاجات التي توصلنا اليها في دراستنا هذه، بالإضافة الى ملاحق ذات صلة بالدراسة.

أهمية الدراسة:

تعالج الدراسة موضوعا مهما يتمحور حول المجهودات التي بذلها الفرنسيون في فهم المجتمع الجزائري من خلال دراسة عاداته وتقاليده وأخلاقه، من أجل تبرير استمرار الهيمنة الفرنسية على الجزائر وعلى الشعب الجزائري، كما أن هذه الدراسة تبرز نظرة مسؤول اداري فرنسي ومترجم قضائي للطرق الواجب اتباعها من طرف سلطات الاحتلال لضمان الهيمنة التامة من خلال مختلف المؤلفات التي كتبها عن المجتمع الجزائري وعن تاريخ الجزائر بصفة عامة.

أهداف البحث:

- التعريف بأحد الضباط الإداريين الفرنسيين في الجزائر الا وهو "ارنست مرسويه" بالنظر لما له من مؤلفات في تاريخ الجزائر.

- ابراز توجهات واء هذا المؤرخ وضابط الإدارة في عملية البحث والتدوين عن المجتمع الجزائري.

- تحديد الأهداف المراد الوصول إليها من خلال هذه المؤلفات وخاصة التي تهتم بالجانب الاثنوغرافي للمجتمع الجزائري.

ومن أجل تحقيق أهداف الدراسة اتبعنا المنهج التاريخي الذي يتوافق مع استقراء المعلومات التاريخية من مختلف المصادر والمراجع التي تحدثت عن واقع المجتمع الجزائري ابان الفترة التاريخية التي عالجها نموذج الدراسة، كما استخدمنا المنهج النقدي في نقد آراء وتوجهات المؤرخ مرسية حول طبيعة المجتمع الجزائري وأخلاقه.

1. التعريف بارنست مرسية ومؤلفاته عن اثنوغرافيا المجتمع الجزائري.

1.1. التعريف بارنست مرسية

ولد المؤرخ ارنست مرسية في مدينة "لاروشيل" "La Rochell" بتاريخ 17 سبتمبر 1840، وهو ابن "ستانيسلاس مرسية" Stanislas Mercier وهو طبيب وصيدلي من الدرجة الأولى (Maguelonne, 1908, p15). انتقل ارنست مرسية الى الجزائر وعمره 14 سنة، بعد أن استقر والده في منطقة أومال "سور الغزلان حاليا" و حصوله على حصة من الأراضي الاستيطانية (Jacques Zeiller, 1945, p166)، وهو ما جعل ارنست مرسية يضطر الى قطع دراسته في كوليج لاروشيل (بومزو، 2008، ص31)، لكن هذا لم يمنعه من مواصلة تعليمه بتعلم اللغة اللاتينية والعربية التي ركز على دراستها بشكل كبير حتى أنقها، وهو ما أهله للنجاح في المرتبة 2 لمسابقة المترجمين سنة 1865 ليعين بعدها بهذه الصفة بمنطقة "سبدو" جنوب مدينة وهران، كما استطاع أيضا النجاح بعدها بسنة واحدة في امتحان المترجم القضائي، وفي شهر نوفمبر 1871 تم تعيينه كمترجم قضائي في مدينة قسنطينة، كما تقلد ارنست مرسية العديد من الوظائف نذكر منها توليه منصب نائب رئيس الجمعية الأثرية لقسنطينة سنة 1875 ثم رئيسا لها بعد ذلك سنة 1892، كما انتخب مستشارا لبلدية

قسنطينة سنة 1884 وشيخا للبلدية في 18 ماي 1884 ثم استقال منه سنة 1887 (شبيبة، 2021، ص326)، ليعاد انتخابه مرة ثانية سنة 1896 الى غاية 1900 أين قدم استقالته من المنصب، ليتفرغ للتأليف حتى وافته المنية بمدينة قسنطينة يوم 16 ماي 1907. (Maguelonne, 1908, p15).

2.1 مؤلفات ارنست مرسية عن اثنوغرافيا المجتمع الجزائري

1.2.1 الكتب

كتاب "تاريخ التواجد العربي في شمال افريقيا من خلال الكتابات العربية خاصة كتاب تاريخ البربر لابن خلدون".

"Histoire de l'établissement des Arabes dans l'Afrique septentrionale selon les documents fournis par les auteurs arabes et notamment par l'Histoire des Berbères d'Ibn Kaldoun"

طبع هذا الكتاب سنة 1875 عن مكتبة قسنطينة الكائن مقرها بمنزل مارلي. ل، وكذلك مكتبة جولييات سانت لاجير بمدينة الجزائر، ومكتبة ودار النشر شالامال بباريس، ويتكون من 410 صفحة، خصص هذا الكتاب لدراسة تاريخ التواجد العربي بشمال افريقيا منذ مجيء الفينيقيين الى بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر سنة 1830، وهو كذلك كتاب عالج فيه المؤلف مكونات مجتمع شمال افريقيا والعناصر الوافدة على المنطقة منذ أقدم الفترات التاريخية.

الكتاب الثاني بعنوان "تاريخ افريقيا الشمالية منذ أقدم العصور الى الغزو الفرنسي سنة 1830"، الجزء الأول.

"Histoire de l'Afrique septentrionale (Berbérie) depuis les temps les plus reculés jusqu'à la conquête française (1830). Tome 1

صدر هذا الكتاب سنة 1888 عن دار النشر ارنست ليروكس 28 شارع بونابرت، باريس وهو يتكون من حوالي 466 صفحة، تضمن هذا الجزء الأول من الكتاب عرضا تاريخيا

لتاريخ شمال افريقيا بالحديث عن أصول سكانها والمراحل التاريخية الكبرى التي مرت بها منطقة شمال افريقيا من فترة ما قبل التاريخ الى انهيار الدولة الفاطمية في بلاد المغرب. وهذا الكتاب مهم باعتباره يعالج في بدايته موضوع اثنوغرافيا مجتمع شمال افريقيا حيث خصص له المؤلف جانبا مهما من دراسته قبل بداية الحديث عن تاريخ شمال افريقيا حيث جاءت هذه الدراسة بعد مقدمة الكتاب بعنوان :

"إثنوغرافيا أصول وتشكيل الشعوب البربرية."

كتاب حول " ملكية الأرض عند مسلمي الجزائر: قوانينها في ظل القانون الهيمنة الفرنسية، دستور الدولة المدنية الإسلامية"

"la propriété foncière chez les musulmans d'Algérie : ses lois sous la domination française, constitution de l'état civil musulman"

صدر هذا الكتاب سنة 1891 من 60 صفحة عن دار النشر ارنست ليروكس للطباعة، 28 شارع بونابرت، باريس، وهو كتاب يعالج ملكية الأرض لدى المسلمين الجزائريين والقوانين التي وضعتها إدارة الاحتلال الفرنسي لضبط هذه الملكية، كما يعالج نقطة مهمة لها ارتباط وثيق ببحثنا هذا وهي قضية الحالة المدنية للمسلمين الجزائريين والقانون الفرنسي الصادر سنة 1882 لضبطها.

كتاب آخر بعنوان "حالة المرأة المسلمة في شمال افريقيا"

"La condition de la femme Musulmane dans l'Afrique septentrionale"

صدر هذا الكتاب سنة 1895 عن مكتبة ودار النشر أدولف جوردن، 4 ساحة الحكومة الجزائر في حوالي 165 صفحة، خصصه المؤرخ ارنست مرسية للحديث عن أوضاع المرأة قبل الإسلام والتحولت التي عرفت هذه الفئة بعد الإسلام بصفة عامة ووضع المرأة الجزائرية بصفة خاصة في ظل القوانين الإسلامية، وهذا الكتاب يخدم بحثنا هذا باعتباره يعالج وضع المرأة الجزائرية في ظل القوانين الإسلامية ويعطي لنا نظرة الإدارة الفرنسية لهذه القوانين.

كما أصدر أيضا كتاب آخر عن: "ملكية الأرض للمسلمين الجزائريين، وضعها القانوني، حالتها السابقة، والوضع الحالي للمسألة"

" La Propriété foncière musulmans en Algérie, condition légale – situation antérieure – état actuel de la question".

صدر هذا الكتاب سنة 1898 عن مكتبة ودار النشر أدولف جوردين، 4 ساحة الحكومة الجزائر وهو يتكون من 90 صفحة، عالج فيها المؤلف أوضاع ملكية الأرض من خلال القانون الإسلامي الجزائري مع مقارنتها بوضعها بعد الاحتلال الفرنسي، كما عالج المؤلف في هذا الكتاب اثنوغرافيا المجتمع الجزائري حيث خصص لها الفصل الثاني كاملا بعنوان الاثنوغرافيا الجزائرية، حيث تحدث فيه عن تشكيل وتكوين مجموع سكان الجزائر واختلافاتهم العرقية.

كما ألف أيضا سنة 1901 كتابا بعنوان: "تاريخ قسنطينة" "Histoire de Constantine" يتكون من 760 صفحة، طبع في دار النشر ج. مارلي و ف. روبين للطباعة والنشر 51 شارع دامريمونت قسنطينة، عالج المؤلف في هذا الكتاب تاريخ منطقة الشرق الجزائري خاصة مدينة قسنطينة منذ فترة ما قبل التاريخ الى سنة 1870، ويوضح لنا التحولات التي عرفت فيها البنية الاجتماعية لمنطقة الشرق الجزائري.

2.2.1 المقالات

مقال بعنوان "اثنوغرافيا شمال افريقيا، ملاحظات عن أصول الشعب البربري" "Ethnographie de l'Afrique septentrionale, notes sur l'origine du peuple Berbère" صدر في المجلة الافريقية "Revue Africaine" التي تصدرها الجمعية التاريخية الجزائرية، وتحديد في مجلد السنة 15 لعام 1871، والذي صدر عن دار النشر باستيد بمدينة الجزائر، ودار النشر ارنولت الكائن مقرها بحي القصر بقسنطينة، وكذلك دار النشر شالامال عين 30 شارع المخبزة باريس، وهذا المقال يبدأ من الصفحة 420 الى الصفحة 443، عالج فيه

ارنست مرسية أصول سكان شمال افريقيا والعناصر التي غزت المنطقة واختلطت بالعنصر الأصلي.

مقال حول "العرق البربري الأصلي لشعوب شمال افريقيا"

"La race Berbère véritable population de l'Afrique septentrionale"

صدر في نشرية ومذكرات جمعية الاثار بمدينة قسنطينة ضمن المجلد الثامن من السلسلة الرابعة للمجلة والاصدار 39 منذ بداية صدورهما، تصدر هذه المجلة عن دار النشر د. براهيم 2 شارع القصر قسنطينة، ودار النشر جورد مقر الحكومة الجزائر وكذا دار النشر ج. أندري ومكتبة افريقيا الكولينيالية 27 و31 شارع بونايرت باريس، وهذا العدد خاص بسنة 1905 وطبع سنة 1906، والمقال الذي كتبه ارنست مرسية في هذه المجلة يبدأ من الصفحة 23 الى الصفحة 60، حيث عالج المؤلف في هذا المقال أصول سكان شمال افريقيا خاصة سكان الجزائر.

2. اثنوغرافيا المجتمع الجزائري من خلال وجهة نظر ارنست مرسية

1.2 اصول سكان الجزائر حسب ارنست مرسية

تعد مسألة أصول سكان شمال افريقيا بصفة عامة من أبرز القضايا التي اهتم بها المؤلف بشكل كبير وخصص لها جانبا مهما في مؤلفاته حيث أكد على وجود الكثير من النظريات التي حاولت تحديد أصول البربر وهي:

* أن أصل الأمازيغ يعود الى قبائل الجيتول والقبائل الليبية التي استقرت في المنطقة منذ القدم، (Mercier, 1875, p366) ثم اختلط بهم الفرس والميديون والأرمن عقب استقرارهم بإفريقيا بعد موت هرقل في اسبانيا، وأطلقوا على أنفسهم اسم النوميدي. (Mercier, 1871, p425).

* نظرية أنهم من نسل جالوت وأنهم ارتحلوا الى شمال افريقيا عقب خروجهم من بلاد الشام بعدما طردهم العبرانيون منها، حيث مروا عبر مصر الى شمال افريقيا واحتلوها (Mercier, 1871, p426).

* أنهم أبناء كنعان بن حام بن نوح وجدهم اسمه مازيغ، كان لهم اخوة هم الجرجيسيين أقرباء الفلسطينيين وكان لهم ملك يدعى جالوت، (Mercier, 1875, p24) وانتقلوا الى افريقيا عقب الحروب التي اندلعت بين الفلسطينيين وبني اسرائيل وهي النظرية التي أوردها ابن خلدون في كتابه. (Mercier, 1888, pXXII)

بعد عرض ارنست مرسويه لهذه النظريات أبدى رأيه الخاص، حيث أكد على: أن شمال افريقيا كانت مأهولة سابقاً من قبل العرق الاشقر، والذي له سمات كبيرة من التشابه، من حيث الخصائص الفسيولوجية والأخلاقية، مع بعض الشعوب الأوروبية (Mercier, 1888, pXXIV).

حدثت هجرات كثيرة الى شمال افريقيا مما أدى إلى تنوع الأعراق من البدو الداكنين في أقصى الصحراء وحتى المزارعين الشقر المنمشين في منطقة القبائل، وهو ما ساهم في تشكل العديد من الأنواع الفرعية عن طريق المصاهرة مع الشعوب الافريقية القديمة أو مع مختلف الشعوب التي غزت البلاد واحتلتها منذ العصور القديمة (Mercier, 1871, p431). إن وجود العنصر الأشقر ذو العيون الزرقاء في شمال افريقيا والذين أطلق عليهم المصريين اسم "تاماهو" بعد غزوهم لمصر (Mercier, 1888, pXXIII)، من غير المستبعد أنهم جاؤوا من أوروبا ثم قام بغزو افريقيا في العصور القديمة جدا واستقروا في الساحل الشمالي، ومن المحتمل أن يكون شقر منطقة القبائل من نسل هذه السلالة (Mercier, 1871, p431).

تشكل الأمازيغ من خلفية افريقية تتعلق بقرابة مع الأجناس القديمة في مصر والحبشة، حيث انتشرت هجرات الشعوب السامية منها، كما تشكلوا أيضا من هجرات السلتيين والايبريين الذين توغلوا عبر مضيق جبل طارق، وهذان العنصران الأجنيان تركا أثرا على المور والأمازيغ، اللذان بقيا على حالهما رغم استيعابهما وتبنيهما لعادات وحضارات الشعوب الغازية (Mercier, 1903, p-p 1-2).

عرفت شمال افريقيا سلسلة من الهجرات القديمة من فلسطين أو شمال شبه الجزيرة العربية تم استيعابها أو قمعها من طرف أصول متنوعة من العنصر الأشقر في الشمال والعنصر ذو البشرة السوداء الداكنة في الهضاب العليا أو الجنوب، وتوحد هذين العنصرين الذي تم منذ زمن بعيد شكل العرق الأمازيغي (Mercier, 1875, p-p 375-376).

سكان الجزائر الأصليون شكلوا كونفدراليات لا يمكن أن نطلق عليها مصطلح قبائل، فقبيلة كتامة مثلا تشكلت من أجزاء لا حصر لها من أصول متنوعة، ونفس الشيء ينطبق على قبيلة زواوة التي تحتل منطقة القبائل الكبرى، وهذه الكونفدراليات اندمجت أو تحولت بعد اتحادها مع أصول متنوعة وأطلقت على نفسها تسميات جديدة (Mercier, 1891, p-p 18-21).

2.2 تشكيلات المجتمع الجزائري وأسلوب حياته خلال فترة الاحتلال الفرنسي

القضية الثانية التي أولى المؤرخ ارنست مرسويه أهمية لها هي دراسة تشكيل المجتمع الجزائري ونمط حياتهم ابان فترة الاحتلال الفرنسي حيث قسم الجزائريين حسب طبيعة عيشهم الى:

- **المزارعين:** هم الذين يستقرون في المناطق الساحلية وفي الجبال في شكل قبائل فرعية صغيرة مرتبطة بالأرض.

- **سكان البدو:** وهم الرعاة الذين يستقرون في المناطق الداخلية ويعتمدون على أسلوب الترحال مع قطعانهم من المناطق التلية الى حافة الصحراء في خيام من الفراء.

- **سكان الصحراء:** وصفهم بأنهم قبائل تحب ممارسة الحرب وحياة النهب سواء ضد السكان السود في أقصى الجنوب أو ضد إخوانهم البربر الرعاة في الشمال.

وأكد المؤرخ مرسويه أن أسلوب الحياة هذا يعود الى عصور قديمة ولم يتغير أبدا، وهو الأسلوب الذي لا زال يعيش به الجزائريون في سنة 1875 (Mercier, 1875, p-p 42-43).

ليستمر المؤلف بعدها في وصف حال سكان المناطق البعيدة عن المدن الفرنسية حيث قال: "المنطقة الجبلية الواقعة شمال قسنطينة وتمتد غربا نحو جيجل... يسكنها سكان مازالوا إذا جاز التعبير الى يومنا هذا في حالة من الوحشية اللافتة للنظر بعيدا عن المراكز الرئيسية وطرق الاتصال" (Mercier, 1895, p136)، هذه الوحشية التي وصفها لنا المؤرخ أدت الى سوء حال السكان في هذه المناطق رغم أنهم كثيرا ما يلجؤون الى المدن لتقديم أنفسهم لخدمة الفرنسيين لمدة 20 سنة، لكن حالتهم السيئة تعود للظهور بمجرد عودتهم الى قراهم بعد ضياع زهمهم وتقليدهم للفرنسيين في اللباس ولم يبق ما يميزهم سوى عبايتهم القذرة (Mercier, 1906, p26).

ومن هذا المنطلق يرى ارنست مرسويه أن المجتمع الجزائري يجب أن يبقى دائما تحت وصاية دولة قوية أخرى تشرف عليه حيث يقول: "لو فكر السكان الأصليون مثلنا لأدركوا أنه حتى في ظل الظروف المواتية لهم وحتى بدعم من قوة أجنبية لن تكون لديهم فرصة كبيرة للانتصار علينا بطريقة نهائية... لأنهم غير قادرين على الاطلاق على إعادة تشكيل الجنسية التي لم يعودوا يملكونها أو منح أنفسهم حكومة جادة ودائمة، سوف يقعون مرة أخرى فريسة للفوضى وسرعان ما يقعون تحت سيطرة أجنبية يمكن أن تكون أقل انصافا وأقل أبوية من سيطرتنا" (Mercier, 1883, P140).

3.2 عادات وتقاليد المجتمع الجزائري

تحدث ارنست مرسويه كذلك في مؤلفاته عن عادات وتقاليد المجتمع الجزائري خاصة المرتبطة بالزواج، حيث أعطى أمثلة عنها من مختلف مناطق الجزائر، وأول منطقة ذكرها هي منطقة القبائل إذ أكد أن الزواج يتم وفق طقوس غريبة كدبح تيس أو طفل صغير، وهي ممارسات بغیضة توقفت منذ تمكن الفرنسيين من السيطرة على المنطقة (Mercier, 1883, p138)، وأكد أن عادات وتقاليد هذه المنطقة تسمح للزوجة إذا أرادت التخلص من زوجها واللاحق بصديقها فعليها إعادة المهر لزوجها كتعويض للشرف الزوجي، أما إذا توفي الزوج

فلا تمنح لها الحرية بل يتم تزويجها لمن ألقى أول قطعة قماش أو ثوب على رأسها ليتولى حضانة أولادها، كما أنها لا تترث الممتلكات بل يتم إعطائها تعويضات مالية عنها.

(Mercier, 1883, p-p 137-140)

لينتقل بعدها ارنست مرسية الى وصف عادات وتقاليد نساء قبيلة الاعشاش المجاورة لباتنة، حيث ذكر أن نساء هذه القبيلة يتمتعن بعادات حرة إذ يخرجن في أيام السوق ويبقن تحت شجرة الطرفاء على طول الطريق الذي يتبعه الناس الى السوق حيث تكون لهم حرية الحب، وهي العادة حاول أحد قادتهم منعها لكنهم بعد تضرر محاصيلهم الزراعية وماشيتهم نتيجة قمع حريتهم توجهوا الى المكتب العربي وطلبوا استعادة عادات آبائهم، وهو ما تم فعلا حيث عادت المحطات تحت أشجار الطرفاء وكان الحصاد وفيرا لدرجة أن صوامع القبيلة التي كانت فارغة لسنوات كثيرة امتلأت (Mercier, 1883, p-p 143-145). ومن العادات التي يوردها كذلك في كتابه ما عاشه شخصيا كضابط اداري حيث يذكر لجوء أحد شيوخ الدواوير اليه يشتكي لجوء حوالي خمسة عشر شابا مع امرأة الى الغابات حيث يبقون هناك يمارسون سرقة الحبوب والاعنام والفاكهة، وعند بحث ارنست مرسية على أسباب الفرار الى الغابة رفقة امرأة وجد أنه من عادات بعض المناطق أن المرأة اذا تطلعت ثم ترغب في الزواج مرة أخرى تقوم بالهروب ليلا الى الجبال حيث يتبعها خاطبها حيث يقومون بتعيين رئيس لهم حيث يمكنون في الجبل ما بين ستة أيام الى 15 يوما حتى ترى السيدة أنها على علم بقيمة خاطبها فتقوم باختياره من بين هؤلاء الشباب ثم تذهب الى القاضي لتحرير وثيقة الزواج (Mercier, 1883, p-p146-148).

ومن العادة غريبة المتوارثة ولتي يتم ممارستها في الربيع في مدينة قسنطينة، وتحديدًا في شهر أفريل حيث يتم احضار عنزة سوداء الى فناء كل منزل ثم يقوم رجل زنجي بقطع حلق الوحش وسط النساء اللاتي تجتمعن حول الدم لجمعه بأيديهن ثم يقمن بمسحه على وجوههن من أجل اختفاء الصداع واستعادة صفائهن، وهي عادة سعى عمدة المدينة الفرنسي لإبطالها

لكن سعيه هذا كان دون جدوى إذ جاء الرجال بعد ضغط من نسائهم الى البلدية للسماح لهم بممارسة عاداتهم ورفع الحظر وهو ما تم فعلا (Mercier, 1883, p-p150-151).

4.2 أخلاق وذهنية الجزائريين حسب ارنست مرسييه

من القضايا الاثنوغرافية التي اهتم بها أيضا المؤرخ ارنست مرسييه قضية اخلاق وذهنية الجزائريين، حيث أكد أن السبيل الأمثل لفهم الجزائريين واختراقهم هو بالعمل على فهم طريقة تفكيرهم وهذا من خلال تعلم لغتهم والنزول لمستواهم بالعيش معهم دون الاعتماد على مترجم ينقل كلامه للفرنسيين (Mercier, 1901, p-p 211-212)، ومن الصفات التي وصف بها الجزائريين نذكر:

1.4.2 اعتماد الجزائريين المطلق على القضاء والقدر

خلال سعي ارنست مرسييه الى تحليل ذهنية المجتمع الجزائري وطريقة تفكيره أورد لنا قضية الايمان بالقضاء والقدر عند الجزائريين أو كما سمها هو "النعمة الإلهية" حيث أكد أنها محور حياة المجتمع الجزائري إذ قال: "إنهم يتوقعون كل شيء من النعمة الإلهية، إن الله هو الذي يمد أذرعهم بالقوة، وإذا سمحوا لأنفسهم باتباع رجل بائس مجنون فذلك بسبب أنه أقنعهم بأنه وكيل الله" (Mercier, 1906, p12)

ليواصل بعدها المؤلف في وصف الجزائريين وطريقة تفكيرهم في الاعتماد على القدرة الإلهية حيث يؤكد بأن الجزائريين لا يستطيعون فهم أفكار الأوروبيين لأن لديهم قناعة مسبقة باحتقار الكافر ومخترعاته الشيطانية وأن المؤمن هو مختار الله، وهو ما لا يسمح لهم بالقلق في المشاكل الكبرى للإنسانية، وليس لديهم رأي في أي شيء وهم غير قادرين على تكوين أفكار أو الحكم المجرد مثل الفرنسيين لأنهم خاضعون بشكل قاتل لحوادث الحياة (Mercier, 1901, p-p 212-213)، حيث يقول: "بعد أن يؤدي المسلم واجباته الدينية من خلال القيام بأعمال شكلية بحتة يترك نفسه يعيش معتمدا على آثار الخير الإلهي... ولهذا السبب ليس لديه خط سلوك أخلاقي ولا ضمير فردي، ولهذا يرفض أن يتعجب ولا يسعى للفهم، ولهذا

السبب لا يستخلص نتيجة أخلاقية من الوقائع التي يشهدها... وأولئك الذين نشأوا في مدارسنا أو التحقوا بنا لسنوات عديدة وتبنوا عاداتنا، يحتفظون بهذا الشكل من العقل وعدم القدرة على الفهم والاستيعاب" (Mercier, 1901, p-p 213-214).

ليؤكد بعد ذلك وجوب التحكم في الجزائريين من خلال عدم توفير كل حاجياته بل جعله دائما في حاجة الى انعام الفرنسيين وفضلهم لأن توفر كل شيء حسبه سيجعله يعلن الثورة عليهم حيث يقول: "إذا حصل المواطن الأصلي على كل شيء، فلن يتبقى له ما يرغب فيه، سيكون مستعدا جدا للانطلاق في الثورة، مقدرا لنا أن نبقي أسيادهم لفترة طويلة" (Mercier, 1906, p13).

2.4.1 غياب روح التضامن بين السكان

بعد معالجته لمسألة اعتماد الجزائريين على القضاء والقدر ركز ارنست مرسية على ميزة أخرى أكد أنها تنتشر بصورة كبيرة بين المجتمع الجزائري ألا وهي غياب روح التضامن بين المجتمع الجزائري وأنهم لا يستطيعون تحمل بعضهم البعض ويتعاملون فيما بينهم بأقصى قدر من القسوة والبعد الكامل عن المغفرة خاصة في مصائب إخوانهم باعتبار أن القرآن يعلمهم بأن لكل شخص عمله ولا يمكن أن تكون مفيدة للآخرين، وبدلا من تقديم المساعدة يسعون للقضاء على بعضهم البعض من الحياة لغياب روح الشفقة والمحبة المسيحية، (Mercier, 1906, p-p 214-215) وبعد شرح مرسية لذهنية الجزائريين يوضح الطرق المثلى للتعامل معهم حسب وجهة نظره حيث أشار الى:

- ضرورة تعديل واثبات عدالة الفرنسيين وصلاحيهم غير المرن، سيفرضون تفوقهم على الجزائريين دون الاستماع الى مجاملتهم البارعة لأنهم ماهرون جدا في فن التملق ويعرفون طريقة اكتشاف نقطة ضعف الجميع واستغلالها في فن الفساد (Mercier, 1906, p217).

- أن الشعب الجزائري عبارة أطفال كبار بحاجة الى أن يحكموا لأنهم غير قادرين على القيادة بأنفسهم، لذا يجب التعامل معهم بحزم وعدم التسامح مع المتآمرين والمفسدين

ومعاقبتهم، كما يجب حمايتهم وتوجيههم، وضرورة استعادة النفوذ الفرنسي من خلال التفوق الأخلاقي الدائم، واستعمال بعض القسوة وإضافة سبعة وأربعين عاما من الاتصال من أجل الحصول على قبولهم (Mercier, 1906, p221).

- كما بين المؤلف أن المستوى الأخلاقي للجزائريين غائب تماما بسبب انتشار ظاهرة الانتقام والاقتتال فيما بينهم لأتفه الأسباب، وهو ما جعله يوجه طلبا الى مسؤولي إدارة الاحتلال الفرنسي بضرورة ترك قدر أقل من الحرية للجزائريين واخضاعهم لمراقبة مباشرة أكثر فعالية حتى في مصلحتهم، ونصحهم بتجنب تطبيق مبدأ المسؤولية الجماعية لأنه سيكون عديم الفائدة (Mercier, 1906, p240).

3. نقد وتقييم آراء المؤرخ ارنست مرسيه

بعد تطرقنا لمختلف الآراء التي ذكرها المؤلف عن المجتمع الجزائري، وجب علينا نقد مختلف القضايا الاثنوغرافيا التي تكلم عنها في مؤلفاته.

3.1 قضية أصول سكان الجزائر

إن المتمعن في النظريات التي أوردها ارنست مرسيه والأفكار التي صاغها انطلاقا من هذه النظريات التي تتحدث عن أصول السكان سيلاحظ أن المؤلف ركز على كون بلاد المغرب عامة والجزائر خاصة لم تعرف استقرار بشريا منذ القدم بل أن الاستقرار البشري فيها جاء نتيجة الهجرات الأجنبية، حيث سعى في عرض آرائه الى اثبات اختلاف تركيبة المجتمع الجزائري بتأكيده على أن أصل سكان القبائل يعود الى هجرات من أوروبا بدليل تشابه المدافن والأدوات المستخدمة في حياة السكان، وأن النوميدي أصلهم يعود الى بلاد فارس وجاؤوا الى بلاد المغرب عقب وفاة هرقل في شبه جزيرة إيبيريا، أما الزوج فقد جاؤوا من الصحراء الافريقية واستقروا في جنوب الجزائر، وهذه النظرة تبين لنا أن مرسيه يسعى الى تفتيت المجتمع الجزائري ونفي وحدته العرقية وبث روح الخلاف بينهم، وإثبات حتمية الصراع بين هذه العناصر الثلاث نظرا لاختلاف أصولهم، لكننا نؤكد أن حدوث هذه

الهجرات لا يعني بالضرورة أن أصول السكان تعود الى هذه المناطق، فحركة الهجرة متغيرة حسب الزمان والمكان، كما أن المصادر التي تحدثت عن شمال افريقيا تؤكد تعدد الهجرات من بلاد المغرب الى مصر واستقرارهم فيها، والمؤلف في حد ذاته أشار الى وجود هذه الهجرة، إذ أكد على أن الكتابة الهيروغليفية أشارت الى تمكن الشعوب الليبية من الاستقرار في مصر (Mercier, 1871, p-p422-423).

كما أن الدراسات والأبحاث التاريخية تؤكد أن الانسان استقر في الجزائر منذ فترة ما قبل التاريخ، حيث يذكر المؤرخ ستيفان غزال اكتشافه أدوات الحجرية تعود الى بدايات العصر الجيولوجي الرابع بالقرب من معسكر ووهران وكذلك سعيدة، كما تم العثور على ملاجئ صخرية استخدمت كملاجئ للسكان الأصليين، (Gsell, 1900, p5) كما يجب أن نذكر أن الحفريات المنجزة سنة 2018 تحت اشراف المركز الوطني للبحوث في عصور ما قبل التاريخ علم الانسان والتاريخ أن موقع "بوشريت" الواقع "بالقطة الزرقاء" قرب مدينة العلمة بولاية سطيف قد عثر فيه على أدوات حجرية من صنع الانسان يعود تاريخها الى 2,4 مليون سنة قبل الميلاد (المركز الوطني للبحوث في عصور ما قبل التاريخ علم الانسان والتاريخ، 2021)، وهو ما يدحض نظرية أن الاستقرار البشري في شمال افريقيا جاء بفعل تعدد الهجرات، ويثبت أن المنطقة عرفت استقرارا بشريا منذ القدم، كما أن المؤرخ ارنست مرسية يناقض نفسه في كتابه فأحيانا نجده يؤكد على الاختلافات العرقية وعدم التناسق لشعب شمال افريقيا عامة والجزائر بصفة خاصة، في حين نجده يؤكد أن ما كتبه المؤرخون العرب وخاصة ابن خلدون على أن سكان شمال افريقيا أمة واحدة هي أصدق تجسيد لواقع سكان شمال افريقيا ولم يعترض على هذا الوصف (Mercie, 1898, p15).

ولكي يفسر لنا ارنست مرسية قضية اختلاف الاجناس المكونة للجنس البربري بين بنا بأن هؤلاء السكان امتزجوا فيما بينهم كما اختلطوا بكل العناصر السكانية التي استعمرت

المنطقة منذ العهد الفينيقي الى هجرة بني هلال الى المنطقة (-XXIV p-p, 1888, Mercier). (XXV).

إذا فالمؤرخ مرسبييه في بحثه عن أصول سكان الجزائر لم يكلف نفسه عناء البحث الجاد عن حل مسألة أصول السكان بل اكتفى بمحاولة التوفيق بين النظريات التي ظهرت قبله فقط، للتأكيد على فكرة عدم التفاهم فيما بينهم أو إقامة تحالفات تصل الى مستوى تكوين دولة بل أصر على أن هذا الاختلاف هو ما يجعلهم غير جديرين بأي مسؤولية حسب تعبيره.

2.3 تشكيلات المجتمع وأسلوب حياتهم

رغم عمل المؤرخ على فهم تشكيلات المجتمع الجزائري وأسلوب حياته من خلال معاينته الشخصية، لكن هذه النظرة تتسم باعتبار الفرنسيين أسياد متحضرين ومتقدمين، أما الشعب الجزائري فهو متخلف لا زال يعيش حياة بدائية متوارثة عن عصور ما قبل التاريخ حتى وإن اختلط بالفرنسيين، لكن المتمنع للوضع الاجتماعي للجزائريين قبل الاحتلال الفرنسي سيجد أن المجتمع الجزائري ينقسم الى سكان المدينة حيث تنتوع الصناعات والحرف والأسواق، كما نجد سكان الريف في مناطق الهضاب العليا والمناطق الصحراوية، والذين يعتمدون في حياتهم على الزراعة وتربية الحيوانات، ورغم أن هذه النشاطات الاقتصادية كانت تمارس بشكل تقليدي الا أنها كانت متنوعة، (عباد، 2012، ص - ص 335 - 339). لكن هذا الوضع تغير بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر وبداية توسع الاحتلال في المناطق الداخلية للجزائر حيث أصبحت الأقلية الفرنسية والأوروبية تمثل قمة المجتمع باعتبارها تملك كل الصلاحيات والأراضي الزراعية الخصبة التي تمت مصادرتها بعد فشل الثورات الشعبية الراضية للاحتلال الفرنسي (بوعزيز، 2007، ص 28)، لينتقل بذلك الجزائريون من ملاك وأصحاب حرف الى مجرد خدم يعملون في المهن الرتيبة في النهار، أو عاطلين عن العمل يتسكعون في أروقة المدن يدخنون الحشيش ويشربون الخمر كما وصفهم المؤلف (Mercier,

(p219, 1901)، وهو وصف يناقض ما ذكره المؤرخ من تحسن وضع الجزائريين بالمقارنة مع حالتهم في العهد العثماني وهذا بالنظر لارتفاع عدد السكان الى 2,5 مليون نسمة حيث يقول "إن هذا العدد يثبت أن عدد السكان يحافظ على رقمه بدلا من الاختفاء... وهذا يثبت أولا قبل كل شيء أنهم ليسوا مظلومين، وأنه مهما قال منتقدونا فإننا لا نستخدم تجاههم الأساليب الهمجية التي نسميها القمع والتدمير بكل الوسائل، يجب علينا أن ندرك أن المواطن الأصلي أصبح سعادة ماديا مما كان عليه قبل الغزو وأن قيمة منتجاته زادت..." (Mercier, 1880, p-p 156 - 15 157).

وهنا يجب أن نتساءل ما الغرض من تناقض آراء المؤرخ فتارة يؤكد على شقاء وعجز الجزائريين عن التفكير وتقديم تفسيرات للظواهر التي يعيشونها وأن وقتهم يذهب هباء في التسكع في الشوارع وتدخين الحشيش والاقتتال فيما بينهم، في حين يؤكد في موضع آخر على انتشار الرخاء والسعادة فيما بينهم؟

إذا فالمؤلف هنا أراد تبرير استمرار الاستعمار الفرنسي للجزائر بالتأكيد على غياب جدية ونشاط الجزائريين دون إشراف الفرنسيين عليهم، لكن الواقع يثبت عكس ما قاله المؤرخ حيث تعرض الجزائريون الى عدة مجاعات خاصة بين سنتي 1867 و 1868 وهي المجاعة التي قضت على عدد كبير من سكان الجزائر ولم تفعل أداة الاحتلال الفرنسي أي شيء للتقليل من أثارها بل تحمل عبئها الجزائريون من خلال التكافل فيما بينهم أو أخذ قروض من البنوك الفرنسية مقابل رهن أراضيهم الفلاحية (بوعزيز يحيى، ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين، 2009، ص 242)، وبالتالي فالوضع الاجتماعي للجزائريين وأسلوب حياتهم تأثر سلبا بسيطرة الفرنسيين على كل الأراضي الخصبة ومستواهم المعيشي أصبح أسوأ مما كان عليه قبل الاحتلال الفرنسي.

3.3 عادات وتقاليد المجتمع الجزائري

رغم أن ارنست مرسويه عمل في مختلف مؤلفاته على تفسير وتحليل عادات وتقاليد المجتمع الجزائري وإبرازه كمجتمع متخلف ما زال يعيش في العصور الحجرية، إلا أننا نلاحظ أنه يدافع في بعض الحالات عن هذه العادات خاصة فيما تعلق بالمهر الذي يدفعه الرجل للمرأة قبل الزواج، حيث أكد أن دفع الرجل لهذا المبلغ هو ضمان لكرامة المرأة وصون لعرضها ودليل واضح على مكانتها المرتفعة في المجتمع الجزائري، وهو بذلك يخالف في ذلك منهج أغلب المؤرخين الفرنسيين الذي ركزوا على ذكر السلبيات فقط، (بومزو، 2007 – 2008، ص - ص 115 - 116) كما يجب أن نذكر أن المؤرخ نبه إلى أن انتشار العادات السيئة حسب وصفه كان في فئة محددة من المجتمع وتأكيد على أن ما ذكره حقائق معزولة وأمور بشرية معقدة تستدعي الحذر من اصدار الاحكام والاستنتاجات المتسارعة، (Mercier, 1895, p 155).

لكن هذه الصورة الإيجابية لا تلغي ما أورده عن بعض العادات والتقاليد التي تصور المرأة الجزائرية بأبشع الصور وأحقرها، حيث وجدنا أنه أصر على ذكر الرؤية السلبية للمرأة وأن قيمتها منحلة في المجتمع وفق ما نقله عن شارل فيرو، خاصة عن وضع المرأة في منطقة القبائل، ثم أضاف إليها ارنست مرسويه إليها بعض الحوادث المتعلقة بالمرأة الشاوية والقسنطينية في منطقة الشرق الجزائري، لكن الحقيقة التاريخية حتى وإن كان ما رواه المؤلف حقيقيا عن انتشار ظاهرة خروج المرأة الى الأسواق وأنها تفر الى الجبال ويلحق بها خاطبوها لتختار منهم ما يناسبها، وهي روايات لا نستطيع التأكد من صحتها أو خطأها لن ارنست مرسويه يؤكد أن حادثة فرار الفتيات الى الجبل أو حادثة ذبح عنزة سوداء وتلطيف النساء لأنفسهن بدمها قد حضرها بنفسه باعتباره ضابط اداري مكلف بالترجمة بين العربية والفرنسية.

لكننا نؤكد أن ما رواه المؤرخ ارنست مرسبييه من هذه الحوادث حتى وإن كان صحيحا يبقى معزولا عند مجموعة قليلة من السكان ولا يعبر عن عادات وتقاليده المجتمع الجزائري وتعاليم الدين الإسلامي، كما أن هذه العادات والتقاليد التي ذكرها خاصة في مدينة قسنطينة لم نعثر عليها خلال بحثنا في المراجع التي تكلمت عن أوضاع مدينة قسنطينة في العهد العثماني، والمؤرخ يؤكد لنا أنها عادات قديمة، لذا نقول أن ادعاءاته انطلاقا من المصادر والمراجع التي تحدثت عن عادات وتقاليده المجتمع لا أساس لها من الصحة، لأن المجتمع الجزائري كان مجتمعا محافظا، رغم انتشار بعض العادات السلبية كانتشار زيارة الاضرحة والتبرك بها والدعاء عندها (بودريعة، 2013، ص - ص 369 - 372).

4.3 أخلاق الجزائريين وأسلوب تفكيرهم

رأينا كيف حط ارنست مرسبييه من شأن الجزائريين وأسلوب تفكيرهم من خلال ادعائه بأن اعتماد الجزائريين على القضاء والقدر أثر على نوعية تفكيرهم وأنهم لا يفقهون شيئا من إنجازات الفرنسيين وتطورهم حتى وإن كان هؤلاء الجزائريون قد درسوا في المدارس الفرنسية، وهو وصف له ما يبرر لدى هذا المؤرخ من خلال دعوته الى إبقاء الشعب الجزائري تحت اشراف الفرنسيين لأنهم كما قال مجرد أطفال صغار لا يستطيعون ضبط أمورهم دون اشراف دولة أقوى منهم، وهو ما يؤكد توجه المؤرخ ارنست مرسبييه الداعم لقضية استمرار الاستعمار الفرنسي للجزائر أكثر.

أما فيما يخص كلامه عن أخلاق الجزائريين وتعاملاتهم فيما بينهم فوجدناه مصرا على غياب روح التضامن فيما بينهم وانتشار الصراعات والاقتتال فيما بينهم والتي ارجعها حسب وجهة نظره الى الدين الإسلامي الذي يحث على تحمل كل فرد عواقب عمله عكس المسيحية التي تؤكد على روح المحبة، فنؤكد ان كلامه هذا يظهر حقه وكرهه للدين الإسلامي فرغم معرفته الجيدة باللغة العربية والقرآن الكريم لم يستدل في كلامه إلا بأية تتكلم عن تحمل كل شخص عواقب أعماله في اليوم الآخر، وهو وضعها في غير سياقها الحقيقي

للتعبير عن تخلف الدين الإسلامي وعدم صلاحيته للمجتمع الجزائري عكس الدين المسيحي الذي يدعو الى المحبة، كما أن الآية التي استدلت بها لإثبات وجهة نظره هي الآية رقم 134 من سورة البقرة وهو ذكر بأنها وردة في سورة الاسراء الآية رقم 16 (Mercier, 1901, p 214).

وبذلك فهو لم يكتف بتزوير آيات القرآن بل تمادى في حقه الى تفسيرها بشكل خاطئ وفق ما يساهم في محاربة الدين الإسلامي من خلال تشويه معالمه والادعاء بأن كل الخلافات التي تظهر بين سكان الجزائر مردها الى التزامهم بتعاليم الإسلام، وهو ما يبين سعيه الى محاربة هذا الدين من أجل تبرير نشر المسيحية التي ادعى بأنها تدعو الى الود والرحمة بين الناس.

ونحن نقول أي محبة مسيحية يتحدث عنها ارنست مرسيه؟ هل هي المحبة التي استعبدت الجزائريين وانتزعت منهم ممتلكاتهم وأراضيهم من خلال قوانين جائرة دافع عنها في كتبه ومؤلفاته؟، أين تكمن المحبة في تقتيل الجزائريين وتشريدهم ومن ثم نفيهم نهائيا من الجزائر؟ كما حصل غداة اندلاع ثورة المقراني والشيخ الحداد حيث دعا المؤلف الى تسليط العقوبات على كل متسبب في اندلاعها (Mercier, 1900, p- p 21 – 29)، وهو ما حدث بالفعل إذ تم نفي العديد من المشاركين في هذه الثورة الى كالدينويا الجديدة، ولا تزال بعض هذه العائلات مستقرة في هذه المنطقة.

كما أن سبب انتشار الصراعات في المجتمع الجزائري يعود بالدرجة الأولى الى الاحتلال الفرنسي في حد ذاته من خلال قوانين الميز العنصري والتفرقة بين أبناء العرش والقبيلة الواحدة سواء من حيث تقسيم ممتلكات الأراضي أو من خلال قوانين الحالة المدنية، وهي قوانين كان لها الأثر في بروز الصراعات والخلافات حول حدود ملكية الأراضي، وحتى إن ظهرت صراعات دون تدخل الفرنسيين فما دخل الدين الإسلامي فيها؟

فالإسلام على عكس ما قاله المؤرخ ارنست مرسية يحث على ضرورة التسامح ونشر روح الاخوة في المجتمع وضرورة إيقاف الاقتتال بين المسلمين فيما بينهم، (النوي، 2007، ص 26)، وهو ما يبين لنا أن ادعاءات المؤرخ دليل على جهله وتعصبه للمسيحية وهو ما يبعد الموضوعية عن حكمه على الممارسات الدينية للمجتمع الجزائري أو عن طريقة عيشه.

4. خاتمة:

من خلال ما تطرقنا اليه سابقا نخلص الى:

تعددت مؤلفات المؤرخ ارنست مرسية التي تحدث فيها عن اثنوغرافيا المجتمع الجزائري بين الكتب والمقالات، بالنظر لمنصب الترجمان الرسمي لقضاء الذي تولاه المؤرخ خلال اقامته في الجزائر، حيث مكنه منصبه من الحصول على مختلف المصادر التي استعان بها في مؤلفاته، كما مكنه منصبه من الاحتكاك بكثرة بالمجتمع الجزائري ومن ثم العمل على فهم طريقة وأسلوب حياته وتفكيره.

أورد المؤرخ في كتبه المختلفة العديد من القضايا التي ترتبط باثنوغرافيا المجتمع الجزائري، لكنه ركز كثيرا في دراساته على قضيتين الأولى هي مسألة أصول سكان الجزائر والمسألة الثانية هي تحليل ذهنية المجتمع الجزائري وأسلوب حياته، وهذا التركيز جاء من منطلق اثبات تباين مكونات المجتمع الجزائري واستحالة التجانس فيما بينهم إلا بتخليهم عن الإسلام وتدخل الفرنسيين في تسيير شؤونهم.

رغم تأكيد ارنست مرسية بأن بحثه يهدف الى معرفة الحقيقة حول المجتمع الجزائري، إلا أننا لاحظنا كيف اكتفى بجمع المعلومات والأحداث التي تخدم تفكيره كضابط إدارة فرنسي وتخدم الاحتلال الفرنسي بالدرجة الأولى، من خلال اثبات تعدد الهجرات الخارجية للسكان الى شمال افريقيا خاصة من قارة آسيا وقارة أوروبا، لكن هذا لا يثبت أو ينفي أن أصول السكان تعود الى هذه الهجرات، كما أن الاكتشافات الاثرية الحديثة تثبت قدم استقرار الانسان في الجزائر منذ 2,4 مليون سنة قبل الميلاد.

لم يكتف المؤلف بإثبات وجهة نظره في اثبات تعدد أعراق المجتمع الجزائري، بل سعى الى اثبات عدم أهلية الجزائريين لتولي أي مسؤولية، وذلك بسبب سوء تفكيرهم وانتشار العداوة في تعاملاتهم فيما بينهم، بالإضافة الى اعتمادهم المطلق على التواكل وعدم بال أي مجهود سوى البقاء في المقاهي والتسكع في الاحياء وشرب الحشيش، كما أن الجزائريين حسب وجه نظر هذا المؤرخ لا يحترمون مكانة المرأة ولا يمنحونها التقدير الذي تستحقه، وهو ما يوضح لنا بأن مرسية ركز على ابراز سلبيات المجتمع الجزائري ولم يتطرق بالمقابل لمساوئ الاستعمار الفرنسي، بل صور له بمظهر الحريص على مصلحة الجزائريين وتحسين ظروف حياتهم.

لم يكلف المؤرخ نفسه عناء التزام الموضوعية والحياد في ابحاثه ودراساته عن المجتمع الجزائري، بل عمد الى تبرير استمرار الاستعمار الفرنسي للجزائر لأن السكان لازالوا صغار وبحاجة الى قوة أجنبية لترعاها، وهو ما يؤكد لنا بأن المؤرخ ارنست مرسية ينتمي في توجهات كتاباته التاريخية الى رواد المدرسة الكولونيالية الداعمة لاستمرار الهيمنة الفرنسية على الجزائر.

إن الأبحاث والدراسات التي أنجزها ارنست مرسية مهمة جدا لأنها تبرز لنا الأوضاع المزرية التي كان يعيشها المجتمع الجزائري خلال فترة الاحتلال الفرنسي وأن ما قاله عن تحسن أوضاعهم بالمقارنة مع فترة الحكم العثماني لا علاقة له بالحقيقة التاريخية، بل يثبت لنا أن المؤرخ يسعى الى تحسين صورة الفرنسيين وأن استعمارهم للجزائر انعكس بالإيجاب على حياة الجزائريين.

رغم أن المؤلف لم يلتزم بالموضوعية العلمية في أبحاثه عن أخلاق المجتمع الجزائري وتاريخهم، إلا أن أبحاثه تملك قيمة علمية كبيرة بالنظر لتعدد المواضيع التي عالجاها في مختلف مؤلفاته، ولذلك نقترح القيام بترجمة كل مؤلفات المؤرخ عن الجزائر مع دراستها بطريقة نقدية بناءة.

يعد البحث الاثنوغرافي أحد أبرز العلوم التي يجب إيلاء الاهتمام بها من طرف الباحثين الجزائريين، وهذا من خلال انجاز دراسات جزائرية بحثية بعيدة كل البعد عن النظريات الغربية التي تهدف الى مسح الجزائريين وتشكيكهم بأصولهم ووحدتهم الثقافية والاجتماعية.

5. قائمة المصادر والمراجع:

المراجع باللغة العربية:

أبي زكرياء يحيى بن شرف النووي. (2007). كتاب الاربعون النووية. (أحمد عبد الرزاق البكري، المحرر) مصر: دار السلام للطباعة والنشر.

المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر. (بلا تاريخ). الحياة الثقافية في الجزائر خلال العهد العثماني. المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر.

صالح عباد. (2012). الجزائر خلال الحكم التركي 1514 - 1830. الجزائر: دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع.

يحيى بوعزيز. (2007). سياسة التسلط الاستعماري والحركة الوطنية الجزائرية 1830 - 1954. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.

يحيى بوعزيز. (2009). ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين، (المجلد الجزء الأول). الجزائر: دار البصائر للنشر والتوزيع.

سفيان شبيبة. (2021). وقفات لإرنست مرسية مع الأحكام التشريعية للوقف الاسلامي قراءة في كتاب قانون الحبس. مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الاسلامية قسنطينة -الجزائر-، 3، صفحة 326.

ياسين بودريعة. (ديسمبر 2013). المعتقدات في كرامات الأولياء بمدينة الجزائر في العهد العثماني. مجلة العلوم الانسانية، 367-383.

عزالدين بومزو. (2007 - 2008). الضباط الاداريون في اقليم الشرق الجزائري إرنست مرسية نموذجاً. (رسالة ماجستير غير منشورة). قسنطينة، الجزائر: كلية العلوم الانسانية والاجتماعية قسم لتاريخ جامعة منتوري قسنطينة.

المركز الوطني للبحوث في عصور ما قبل التاريخ علم الانسان والتاريخ. (15 ديسمبر، 2021). تم الاسترداد من

www.cnrpah.org/index.php/component/k2/item/98-algerie-un-autre-berceau-de-l-humanite

المراجع باللغة الأجنبية:

- Ernest, M .(1875) .*Histoire de l'établissement des Arabes dans l'Afrique septentrionale selon les documents fournis par les auteurs Arabes et notamment par l'Histoire d'Ibn Khaldoun* .Constantine: Chez L,Marle libraire éditeur; et Juillet Saint Lager libraire Alger; et Chalemel libraire éditeur Paris.
- Ernest, M .(1880) .*Le Cinquantenaire d'une colonie, L'Algérie en 1880* .Paris: Challamel libraire éditeur libraire Algérienne et colonial, 5 rue Jacob.
- Ernest, M .(1883) .*L'Algérie et les questions algériennes ,étude historique, statistique et économique* .Paris: Challamel Ainé éditeur librairie Algérienne et coloniale, 5 rue Jacob, et 2 rue Furstenberg.
- Ernest, M .(1888) .*Histoire de l'Afrique septentrionel (Berbère) depuis les temps les plus reculés jusqu a la conquete Française* .Paris: Ernest Leroux éditeur; 28 rue Bonaparte.
- Ernest, M .(1891) .*La Propriété foncière chez les musulmans d'Algérie : ses lois sous la domination française, constitution de l'état civil musulman* .Paris: Ernest Leroux , éditeur, 28 rue Bonaparte.
- Ernest, M .(1895) .*la condition de la femme Musulmane dans l'Afrique septentrionale* . Alger: Typographie Adolphe Jourdan imprimeur libraire éditeur, 4 place du Gouvernement.
- Ernest, M .(1900) .*Le Bach ag'a Mokrani et les causes de l'insurrection indigène de 1871* . Paris: Beaugeney, J.Laffray Imprimerie.
- Ernest, M .(1901) .*La question indigène en Algérie au commencement du XXe siècle* . Paris : Augustin Challamel ,éditeur, 17 rue Jacob.
- Ernest, M .(1903) .*Histoire de Constantine* .Constantine: J.Marle et F.Biron imprimeurs , éditeur, 51 rue Damrémont.
- Ernest, M .(1906) .*Français et Indigènes en Algérie* .Constantine: D.Brahama, imprimerie librai.
- Stéphane, G. (1900). *L'Algérie dans l'antiquité*. Alge: Girall Imprimeur photographeur, 17 rue des colons Alger-Mustapha.
- Ernest, M. (1871). *Ethnographie de l'Afrique septentrionale, notes sur l'origine du peuple Berbère*. Revue Africain, 15 Année. Bastide libraire – éditeur, Alger.
- J.M .(1908) .M.Ernest Mercier .*Recueil des notices et mémoire de la société archéologique de la province de Constantine*.
- Jacques, Z .(1945) .Un historien de l'Afrique du nord ; Ernest Mercier .*Journal des Savants*, p-p 166-170.

الملاحق:

الملحق رقم 1: جدول للتعريف بمصطلحات وشخصيات البحث:

الشخصية	تعريفها
ابن خلدون	هو عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، مؤرخ وباحث اجتماعي، ولد بتونس سنة 732 هـ / 1332م، تلقى تعليمه الأول فيها على يد والده ثم على يد ثلة من علماء المنطقة، ارتحل الى مدينة فاس عقب وفاة والده واستقر بها حيث انضم الى بالط ملكها أبو عنان المريني، لم يستقر ابن خلدون في مكانه كثيرا حيث ارتحل الى غرناطة ثم الى اشبيلية ليعود بعدها الى بلاد المغرب حيث استقر بتونس لمدة أربع سنوات، ثم ارتحل بعدها الى بلاد الحجاز لأداء فريضة الحج ومنها سافر الى مصر التي استقر بها الى غاية وفاته سنة 808هـ / 1406م، من أشهر مؤلفاته: كتاب المقدمة وكتاب ديوان العبر المعروف بتاريخ ابن خلدون. المرجع: خير الدين الزركلي، 2002، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ج3، دار العلم للملايين، بيروت لبنان، الطبعة: 15، ص330.
ستيفان غزال	ولد المؤرخ ستيفان غزال يوم 17 فيفري 1864 بمدينة باريس، تلقى تعليمه بمسقط رأسه، ونتيجة تفوقه استطاع دخول مدرسة الأساتذة سنة 1883 والتي تخرج منها بعد ثلاث سنوات، ليلتحق بعدها بالمدرسة الفرنسية بمدينة روما أين تمكن من الحصول على درجة الدكتوراه سنة 1894، ليعين بعدها في مقعد الاستاذية كمكلف بدروس الآثار بمدرسة الآداب بالجزائر، كما تم تعيينه كمفتش للآثار بالجزائر سنة 1900، لكنه انتقل الى باريس بعد وفاة زوجته أين عين كمدرس بالكلية الفرنسية سنة 1912، لكنه حافظ على منصب مفتش الآثار الذي مكنه من اجراء عدة حفريات بالجزائر مكنته من جمع معلومات كثيرة حول التاريخ القديم للمنطقة، ترك المؤلف العديد من المقالات والكتب الخاصة بتاريخ شمال افريقيا في العصور القديمة أبرزها كتاب تاريخ شمال افريقيا القديم، توفي بتاريخ 01 جانفي 1932. المرجع: Picard Charles, 1947, Notice sur la vie et les travaux de M. Stéphane Gsell, member de l'Académie, Comptes rendus des séances de l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres, pp. 24-86.

الملحق رقم 2: جدول لشرح المصطلحات المستعملة في الدراسة

المصطلح	شرحه
الاثنوغرافيا	الاثنوغرافيا ترجمة لمصطلح "Ethnography" المكون من مقطعين "Ethno" التي تعني جنس أو شعب، و"Graphy" واي تعني وصف، وبذلك فكلمة اثنوغرافيا تعني وصف ثقافات الشعوب، وهي كذلك شكل من أشكال البحوث النوعية التي تتيح للباحثين تحصيل وجمع البيانات داخل السياقات الثقافية أو الاجتماعية موضع الدراسة. المرجع: عدنان محمد أحمد قطيط، جوبلية 2021، الاثنوجرافيا كمنهجية للبحث التربوي الكيفي دراسة نظرية، مجلة البحث التربوي، المركز القومي للبحوث التربوية والتنمية بالقاهرة، مصر، ص-ص: 151-153.
الجيوتول	هي تسمية عامة لقبائل البدو التي كانت تقطن المناطق الداخلية لشمال افريقيا، وأغلب المراجع والمصادر التاريخية ترجح بأنهم السكان الاصليين للمنطقة، واسم الجيوتول أطلقه الرومان على مجموعة من القبائل التي كانت تقطن مساحة شاسعة من الأرض تمتد من ليبيا اليوم الى أقصى الحدود المغربية، والتي تعتمد على حياة الترحال والتنقل بماشيئهم بحثا عن المراعي والعشب إذ يعبرون جبال الاطلس الصحراوي نحو الشمال ثم يعودون في الخريف الى الصحراء. المرجع: سيرات بوحفص، جوان 2018، الجنوب الغربي الجزائري في عصور ما قبل التاريخ من خلال قبيلتي الجيوتول وزناتة، مجلة نتائج الفكر، المركز الجامعي الصالحي أحمد، النعامة، الجزائر، العدد: 3+4، ص-ص: 341-342.
الأرمن	تؤكد جل الدراسات والأبحاث أن قبائل الأرمن ذات أصل أري تعرف باسم الشعوب الهندو أوروبية، وأن هذه القبائل انطلقت من آسيا الوسطى واخترقت في هجرتها العديد من المناطق من أقصى الشرق إلى شواطئ المحيط الأطلسي، تميزت حياة هذه القبائل بالتنقل والحروب مع الشعوب التي جاورتهم حيث استقروا في البلقان شمال اليونان، ثم توغلوا في الأناضول نحو مجرى الفرات الأعلى، حيث تغلبوا على السكان القاطنين في تلك الأماكن واختلطوا بهم، وهو ما جعل قبائل الأرمن تكون خليطا من العناصر الآرية والأورارتية والحثية، والقبائل التي استوطنت شرقي الأناضول. المرجع: مروان المدور، (د-ت)، الأرمن عبر التاريخ، منشورات دار نوبل، دمشق، سوريا، الطبعة الثانية، ص - ص: 95 - 109.
الميديون	هناك اختلاف كبير في تحديد الموطن الأصلية للميديين، ولكن أغلب الدراسات الحديثة ترجح هجرتهم مع الفرس من مناطق اسيا الوسطى حوالي 1200 قبل الميلاد، استقر الميديون بشكل رئيسي في ماهي دشت وإلى الشرق منها في سهول همدان. واستقر بينهم بعض القبائل الفارسية وعاشوا حياة شبه بدوية حتى فترة متأخرة من القرن الخامس قبل الميلاد، خاضة هذه حروب مع جيرانهم من بلاد الرافدين واستطاعوا مد نفوذهم الى هذه المنطقة بعد تحالفهم مع البابليين والكلدانيين ضد الإمبراطورية الاشورية التي سقطت عاصمتها سنة 612 قبل الميلاد، كما استطاعوا التوسع الى منطقة آسيا الصغرى. المرجع: محمد أبو المحاسن عصفور، 1968، معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم منذ اقدم العصور الى مجيء الاسكندر، مطبعة المصري، الإسكندرية، مصر، ص-ص: 416-418.
السلتيين	عبارة عن مجموعات قبلية فرضت سيطرتها من الجزر البريطانية الى مصب نهر الدانوب، وهذه المجموعات رغم أنها تماثلها في نمط العيش ونوعية الأسلحة وطريقة الدفن إلا أنها لا تعود الى نسب واحد ولا الى عرق واحد، كما أن أصول هذه القبائل غير معروفة بدقة رغم أن بينها وحدة قبلية متينة، حيث استطاعت بناء حضارة تعرف بالحضارة الهولستاتية حوالي 500 سنة قبل الميلاد، تميزت حياة القبائل السلتيية بحياة الترحال حيث وصلت تحركاتهم لتشمل نهر الراين واسبانيا وجنوب فرنسا، كما استقرت مجموعات في إيطاليا الوسطى وصولا الى جنوب البحر الأسود حوالي القرن الخامس والرابع قبل الميلاد. المرجع: بيار غريمال، جاك بيار ميوت، مارسيل باكو، رنيه رانيال، 2012، موسوعة تاريخ أوروبا العام، ج:1 أوروبا من العصور القديمة وحتى بداية القرن الرابع عشر، إشراف: جورج ليفة ورولان موسنييه، تعريب: أنطوان إ. الهاشم، عويدات للنشر والطباعة، بيروت، لبنان، ص - ص: 91 - 92.